إن طريق الدعوات ليس هينا لينا ، واستجابة النفوس للدعـــوات ليســت قريبة يسيرة ، فهناك ركام من الباطل والاضلال والتقاليد والعادات يجثـــم على القلوب ، ولابد من إزالة هذا الركام ، ولابد من استحياء القلوب بكل وسيلة ، ولابد من لمس جميع المراكز الحساسة ، ومن محاولة العثـــور على العصب الموصل ، وإحدى اللمسات ستصادف مع المثابرة والصـبر والرجاء ، ولمسة واحدة قد تحول الكائن البشري تحويلا تاما في لحظـــة متى أصابت اللمسة موضعها .

وإن الإنسان ليدهش أحيانا وهو يحاول ألف محاولة ، ثم إذا لمسة عـــابرة تصيب موضعها في الجهاز البشري فينتفض كله بأيسر مجـــهود ، وقـــد أعيا من قبل كل الجهود . (٤٧)

إن تلك الشموع التي أضاءها ببنانه ــ ذلك القطـــب ــ وأزكاهـــا بنـــور بصيرته حتى استوت على سوقها ، لتجعل القلم يعجز عن التحليق حولها، ولكن من قبيل إخراج الشاهد أقول .

** إن طبيعة الدعوة واحدة من لدن آدم عليه السلام حتى آخـــر الرســل وأن طبيعة المدعوين واحدة .

وإن التأسي بما مضى ليريح النفوس المطمئنة ويهدئ من روع القلـــوب التي قد يصيبها حرج من ذلك .

وإن اليأس من بطء استجابة المدعوين ليس من شيم المخلصين من الدعاة ولا ينبغي لهم ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفتح المبين مـــع الأمـــل المنشود والرجاء فيما عند الله .

---

(٤٧) في ظلال القرآن ٤/٢٣٩٣-٢٣٩٤ .

[٤] نبي فقد أسباب العافية في الولد والبدن فلم يفقد الأمل فيما عند الله .

وهو نبي الله أيوب عليه السلام الذي كان قد أوتي مالا وفيرا وضيعة واسعة الأرجاء وأهلين حوله عصبة ، فشكر ربه على أنعمه فصار بها من الشاكرين ، فأراد ربه أن يؤتيه درجة الصابرين ليجمع له الحسنيين ، فأخذ ما كان به شاكرا ليجعله بفقده صابرا ، واشتد به بلاؤه سنين عددا فصبر إيمانه فيها فازداد قربا من الله ، وكان من أشد البلاء عليه تخلي من له يد عليهم عنه ، ففوض الأمر إلى الله ، حتى إذا أذن له ربه بالشفاء ألقى في روعه بالدعاء ، فكان النجاء مما يجد ويحاذر .

قال ﷻ ﴿ **وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين. فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين .** ﴾ الأنبياء ٨٣-٨٤ .

والملاحظ في الآية :-

(١) تأدب هذا النبي الكريم مع ربه ، فلم ينسب الضر إلى الله ، مع علمه أن ﴿ **... كل من عند الله ..** ﴾ النساء ٧٨ .[٤٨]

(٢) وكان دعاؤه جامعا [٤٩] وهذا من كمال هدى الإسلام .

(٣) انفساح الأمل عنده .

---

(٤٨) وهذا الأدب الرفيع مع ذي الجلال كان شأن المقربين ، فالخليل إبراهيم عليه السلام قال : ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذي يميتني ثم يحيين ..﴾ الأيات٧٨-٨١ الشعراء ، فنسب كل إنعام وإفضال لربه ، أما الابتلاء فلا ينسبه إليه.

(٤٩) عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء ، ويدع ما سوى ذلك " رواه أبو داود في السنن ، كتاب الصلاة ، باب الدعاء ٢/٧٨ .

فمع شدة المرض وطوله ، وما لحق به من ضر ، كان في مقابل ذلك أنه طلب من الله قارنا طلبه بصفة الرحمة ﴿ ... **وأنت أرحم الراحمين .** ﴾ لم ييأس من الشفاء لأنه بيد الله ، والله أرحم الراحمين فيجب أن يتوجه القلب غليه قصدا ، فكل شيء بأمره .

وبهذا يعلم نبي الله أيوب عليه السلام المرضى الذين صاحبهم مرضهم فترة يعز على من رآهم أن يفصل بين المرض والمريض ، أن يكون عندهم أمل عريض في رحمة الله ، وأن يطرحوا من أنفسهم اليأس من الشفاء من أي داء مهما كانت ضراوته ، فإن اليأس من الشفاء يزيد المريض علا على علته .

لقد تكدست " المستشفيات " بالمرضى وأسباب أمراضهم عديدة وأخطرها الوهم والخوف من المرض أن ينزل بساحتهم ، أو أن يسلب أرواحهم بمجرد نظره إليهم ، والناس من خوف المرض في مرض .

ولو فقه المسلمون الدرس من نبي الله أيوب عليه السلام ، ولو تفاعل المسلمون وأخذوا بأسباب الصحة جميعها ، ولو خلع المرضى ثوب الضعف ، ونشطوا من عقال ، لكان من حالنا أن ضل المرض طريق أبداننا إلا قليلا ، أو جاءنا ضيفا غير ثقيل ولكان من حالنا أن كثر الخير وعم الرخاء ، فهل يعقل المسلمون الدرس من قصص القرآن ؟!

﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون.** ﴾ يوسف١١١.

[٥] نبي حرم نعمة الولد .لفقد أسبابه .فلم ييأس ولم يقنط من عطاء ربه .

إنه نبي الله زكريا عليه السلام الذي رزقه بامرأة عاقر ، وظل معها سنين عددا على أمل الولد ، لكن قدر الله معه كان أعظم ، إذ أن الله ﷻ أراد أن يجعل منه آية للعالمين . حينما أخر له البشرى حتى يبلغ عتيا من العمر، وشاخت امرأته ، حتى لا يتسرب ظن خفي أو جلي لأحد أن للأسباب المادية أدنى دخل في تلك المعجزة الربانية ، قال ﷻ ﴿ **كهيعص . ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفيا . قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا . وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا . يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا . يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا .** ﴾ مريم ١-٧.

وقال ﷻ ﴿ ... **وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب . هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين . قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء .** ﴾ آل عمران ٣٧-٤٠ .

وقال ﷻ ﴿ **وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين. فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين.** ﴾ الأنبياء ٨٩-٩٠.

من خلال تلك الآيات يتضح لنا الآتي :-

(١) أن أي نبي من أنبياء الله ــ عليهم السلام ــ إنما هو بشر[٥٠] لقوله ﷻ : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا .﴾ الإسراء ٩٤ .

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم .﴾ الشورى ٥١ .

ومن حكم الله في ذلك لتتحقق القدوة للبشر .

وزكريا عليه السلام كان بشرا نبيا تحركت فيه عاطفة البنوة فأدرك أن سبيل تحقيق ذلك عند الله فناداه نداءا خفيا متضرعا إليه .

(٢) إن الذي حفز زكريا عليه السلام لذلك إنما هو ما رآه من إكرام الله لمريم على غير ما سبب، فاكهة الشتاء في الصيف والصيف في الشتاء ، بل وجد عندها من الفواكه ما لا يجده على الأرض ، فلما سأل عن ذلك قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فرأى أمامه آية عملية واقعية فاطمأن بها قلبه ــ كما اطمأن قلب إبراهيم عليه السلام [٥١] ــ فنادى ربه .

(٣) أن هنالك منحا ربانية لا يدركها العبد إلا باجتهاده وكثرة حركته ، ولقد أدرك زكريا عليه السلام تلك المنحة الربانية بسبب إيوائه لتلك الصديقة ، وقيامه على خدمتها ، وهكذا من أراد أن يتعرض لنفحات الله فليتحرك لله حركة هادفة ، ورحم الله الإمام الشافعي حيث قال :-

إني رأيت وقوف الماء يفسده إن سال طاب وإن لم يسل لم يطب .
الأسد لولا فراق الغاب ما افترست والسهم لولا فراق القوس لم يصب .

---

(٥٠) وكان هذا سببا يتعلل به المشركون المعاندون في تكذيبهم لرسلهم ، وهذا ما وضح من خلال آي القرآن الكريم : إبراهيم ١٠، المؤمنون٢٤-٣٣ ، التغابن ٦، هود ٢٧ ، القمر ٢٤ .. إلخ تلك الآيات ، والتي بين فيها القرآن تهافتهم فيما تعللوا به .

(٥١) إشارة إلى قوله ﷻ ﴿ ولكن ليطمئن قلبي ﴾ .

(٤) التأدب في الدعاء :- [٥٢] ﴿ إذ نادى ربه نداء سدا . قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا . وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا . يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا . ﴾ مريم ٣-٦.

ومع أن وهن العظم واشتعال الرأس شيبا من سنن الله مع بني آدم ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير .﴾ الروم ٥٤ .

إلا أنه عليه السلام تأدب فلم ينسب نزول الضعف به إلى الله .

(٥) لم يكن يقصد بالولي الذي يرثه ميراثا ماديا ، وإنما يرثه ميراثا دعويا . [٥٣]

وحال سيدنا زكريا عليه السلام حينما طلب ولدا عليما حكيما أشبه بطلب نبي الله موسى عليه السلام حينما طلب النبوة لأخيه هارون عليه السلام ، وهكذا فليحرص المؤمن على أن يكون ولده أقرب إلى الله ﷻ علما وحكمة .

(٦) التفويض المطلق في الطلب من الله وترك الاختيار إلى الله ﷻ :

﴿ واجعله رب رضيا . ﴾ [٥٤] ﴿ هب لي من لدنك ذرية طيبة .﴾

---

(٥٢) وهذا كان سمت الأنبياء عامة كما وضحت عن نبي الله أيوب عليه السلام وآخرهم سيدنا محمد ﷺ الذي قال له ربه ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ البقرة ١٤٤.

(٥٣) أنظر معنى الوراثة مفصلة في كتاب " قصص الأنبياء " للإمام ابن كثير ص٤٧٥ ، وللعلامة القرطبي كلام طيب مستفيض في هذا المعنى أيضا فليرجع إليه في الجامع لأحكام القرآن ٦/٥٥-٥٦ .

(٥٤) أي مرضيا في أخلاقه وأفعاله .. ، وقيل رجلا صالحا ترضى عنه ، وقيل : نبيا كما جعلت أباه نبيا ــ المرجع السابق المجلد والصفحة نفسهما .

فالذرية الطيبة قد يكون فردا ، وقد تكون مجموعة ، ونبي الله زكريا عليه السلام ترك الاختيار لربه ، فأرضاه الله بأن رزقه نبيا من الصالحين ، وهذا درس للطالبين من ربهم .

(٧) أن الله سبحانه وتعالى استجاب لعبده زكريا عليه السلام بمؤهلات كان عليها ، وهي : أنهم كانوا يسارعون في الخيرات ، ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين ، فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ... إلخ .

وهكذا فإن العبد ــ أي عبد ــ لو تحققت فيه تلك المؤهلات العالية فسوف تفجر في جوانبه الرجاء في العطاء ممن أمره بين الكاف والنون .

ولن تجد عبدا جاز تلك المؤهلات إلا وعنده يقين أن ليس عند الله مستحيل ، وأن الأسباب المادية إذا ولت مدبرة ولم تعقب ، وقال الأولون والآخرون لن يكون (**) فإنه سيدرك بحسن ظنه بربه أن ما عند الله اقرب للعبد من حبل الوريد .

ومن هنا فإن سيدنا زكريا عليه السلام ــ بما قصه القرآن علينا ــ ليفتح باب أمل عريض أمام من حرموا نعمة الولد ، أن يحققوا تلك المؤهلات من تعلق قلوبهم بالمحاريب ومن الخشوع والضراعة لله ، ومن المسارعة إلى الخيرات والإلحاح على الله بالدعاء واليقين في الاستجابة .

إذا فتلك القصة المباركة قد عالجت أمورا تربوية كثيرة كان من أبرزها علاج جانب من الجوانب البشرية وهو " الولد " الذي يسعى الإنسان ويحفد من أجل أن تقر به عينه ، وقد ينفق آلاف الجنيهات في العلاج المادي غير المضمون ، ولو أنه تدبر آيات القرآن ووقف عند تلك القصة متأملا لأدرك أن نعمة الولد ليس عزيزا على الله تحقيقها بهذه المؤهلات.

(**) فإن الله سيلقي في روعه كما نادى نبيه موسى عليه السلام ﴿ أقبل ولا تخف ﴾ أي أقبل على الله ولا تخف الضياع في جانب الله .

قول الإمام ابن كثير [٥٦] :-

والمقصود أن الله ﷻ أمر رسوله ﷺ أن يقص على الناس خبر زكريا عليه السلام ، وما كان من أمره حين وهبه الله ولدا على الكبر ، وكانت امرأته عاقرا في حال شبيبتها ، وقد أسنت أيضا ، حتى لا ييأس أحد من فضل الله ورحمته ، ولا يقنط من فضله تعالى . " [٥٧]

وبهذا يفتح القرآن الكريم باب الأمل أمام من استبد به اليأس وترسب القنوط في قلبه ، وأدرك المستحيل بناظريه أن ينهض من جديد ويعوض قلبه لإشراقات القرآن ، حينئذ ستشرق شمس ساطعة تحمل أشعتها البشريات ، وتهب عليه نسمات حانية ، حينما يسري صوت بكائه " الطفل " ودبيبه بين يديه وأمام ناظريه ، كل هذا سيدركه عند أول إشراقة تضيء عليه حياته .

[٦] نبي سلب منه ولداه فلم ييأس من رجوعهما إليه .

نبي الله يعقوب عليه السلام الذي من قصته مع بنيه وفقده لولديه الواحد تلو الآخر ، واشتد به حزنه لدرجة أثرت على بصره لكنها أزكت بصيرته ، قال ﷻ : ﴿ **وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين . قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون. يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.**﴾ يوسف ٨٤-٨٧.

---

(٥٦) هو أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضدء بن كثير القرشي الدمشقي ، ولد ببصرى سنة ٧٠٠هـ وتوفي سنة ٧٧٤هـ ـ أنظر التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي ٢٥٢/١ وما بعدها ط٦ مكتبة وهبة ١٩٩٥م .

(٥٧) قصص الأنبياء لابن كثير ص٤٧٤ .

وفي تلك الآيات وقفات :-

(١) أن الحزن الشديد يأخذ طريقه إلى البدن سريا دون أن يشعر به ابن آدم ، فيزاحم قوته ونشاطه ، وقد يختلط بشحمه فيذيبه ، أو بدمه فيفسده ، أو يأتي على بعض حواسه فيفقدها .

ومن هنا تدخل الإسلام فرشد من حالة الحزن عند الإنسان ، قال ﷻ : ﴿ **لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور .** ﴾ الحديد ٢٣ .

فليكن المسلم وسطا فيهما .

(٢) أن هذا النبي لم يفقد أمله في ربه أبدا ، فهو وجهته يبث إليه شكواه ، ويعلم من الله ما غاب عن البشر ، وهذا سر تفاؤله دائما؛ ولهذا أراد ذلك النبي الكريم أن يلقن أولاده هذا الدرس الأسمى ، أن اليأس قرين الكفر ، وهو ثمرة من ثمار المظلمة ، وأن الأمل لا يكون مجرد أماني ، وإنما لابد معه من عمل وحركة ، فهو يقول ﴿**اذهبوا فتحسسوا** ﴾ ففي تلك الكلمات حركة وإعمال ذهن، والتحسس : طلب الشيء بالحواس ، فهو تفعل من الحس . " [٥٨]

(٣) وأراد ذلك النبي الكريم عليه السلام أن يؤكد هذا التفاؤل حتى يكون لديه حق اليقين ، فقال لهم ﴿ **إني لأجد ريح يوسف** ﴾ يوسف٩٤.

وكانت تلك الريح تمهيدا من الله وتهيئة له حتى لا يكون وقع المفاجأة عليه أشد ، فقد يلفظ المرء نفسه لشدة المفاجأة ولو كانت خيرا .

([٥٨]) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥/١٦٥.

فرفق به ربه رحمة به فسبقت الريح القميص ، والقميص صاحبه ، والعلماء على أن ريح يوسف هبت نسماتها عليه فقط دون بنيه خارقة له؛ ولذلك قال بعدها ﴿ **لولا أن تفندون** ﴾ أي لولا أن تتهموني في عقلي .

وكانت نتيجة تفاؤل الشيخ وحسن ظنه بربه أن كان ربه عند حسن ظنه به إذ بعث إليه بـ ﴿ **البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا** ﴾ يوسف٩٦.

لتظل تلك القصة العظيمة إشعاعا أمام اليائسين أن ينهضوا ليشموا ثوب الأمل :

فيقول المريض الذي فقد عافية إني لأجد ريح عافيتي .

ويقول الفقير الذي حرم المال إني لأجد ريح الغنى .

ويقول المكروب الذي أكل عليه الكرب وشرب إني لأجد ريح الفرج .

وهكذا .. تظل قصة نبي الله يعقوب عليه السلام وبنيه آية من آيات الله في التفاؤل وسعة الصدر بقرب فرج الله ، حيث إن هذا النبي قد علم أصحاب الكروب والذين أسرهم القنوط تلك الكلمات :-

١- ﴿ **إنما أشكو بثي وحزني إلى الله** ﴾

٢- ﴿ **وأعلم من الله ما لا تعلمون.** ﴾

٣- ﴿ **يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله** ﴾

٤- ﴿ **إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .** ﴾

٥- ﴿ **إني لأجد ريح يوسف** ﴾

وهو منهج عظيم لتفريج الكروب وكنس الهموم من النفوس كنسا ، وغلق كناسها [٥٩] في نفوس المهمومين لئلا يعود إليهم مرة أخرى .

وخلاصة هذا المنهج كما هو واضح في تلك المبادئ الخمسة السابقة :-

١- الدعاء . ٢- اليقين .٣- العمل والحركة لتحقيق المأمول .

٤- اليأس من صفات الكافرين فلا مجال له بين المؤمنين .

٥- انتظار فرج الله ﷻ القريب .

•• وعلى شاكلة سيدنا يعقوب عليه السلام كان موقف أم موسى عليه السلام :- حيث كان قدرها مع حاكم نزعت الرحمة من قلبه ليملأ طغيانا كبيرا ويصدر أمره بأن يقتل الأبناء .

ولقد رزقت بولد ذكر هو موسى عليه السلام وحارت وتلبدت الهموم بأرضها وسمائها ، وحركت يدها فلم تكد تراها مما اعتراها من ذهول لهذا المصير المجهول لهذا الطفل ، وحينئذ تفضل عليها أرحم الراحمين فثبت قلبها وأوحى إليها وحيا لا تشك في كونه من عند الله ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين** ﴾ القصص٧ .

وظلت أم موسى تحيا على هذا الأمل ، فلم تقطع حبال الأمل في أن تقر عينها به مرة أخرى ﴿ **وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون** ﴾ القصص١١ .

---

(٥٩) الكناس بالكسر : مدخل في الشجر يأوي إليه الظبي ليستتر ــ المعجم الوجيز ص٥٤٢.

ووفى لها ربها حين حرم المراضع على ابنها لتتسلمه ولتقر عينا به تحت حراسة جند فرعون التي كانت بالأمس القريب جدا ، تفرق من دبيب النمل في الليلة الظلماء على الحجر الأملس ، ترى صوت النملة في ذلك كأنه رعد حفيف ثياب الزبانية ، أو صاعقة خفق نعال الطواغيت ، الذين يوفضون لانتزاع رضيعها من قلبها .

فسبحان الله الذي جعل عامل الخوف عامل أمن لها وطمأنينة ترعى ولدها في حراستهم ، وهذا بفضل طاعتها لوحي الله .

وتلك عاقبة الطاعة لله ولرسوله ، وتلك ثمرة الثقة بوعد الله والأمل فيما في يد الله ، ولو أنها لم تسمع فلم تلقه في البحر ، ولو أنها يئست من رحمة الله لتغير الوضع ، ولما كان لها وزن عظيم عند الله .

وبعد :-

هذه النقاط من أبرز المواقف التي ذكرها القرآن في مقام بث روح الأمل في نفوس البشرية ، وهي ــ ولا شك ــ أعظم منهج لمحو اليأس من النفوس ، ونزع القنوط من القلوب ، وصبغ حياة المؤمنين بصبغة الأمل، وإسدال ثوب التفاؤل عليهم .

ونلخصها فيما يلي :-

(١) تقدير طبيعة المرء وظروفه المحيطة به ، وتلمس الأعذار له ، ودعوته دائما لفتح صفحة جديدة مشرقة ولا يبالي بما مضى ، وإن كان ركاما من الأخطاء فإن من يملك الحساب والسؤال ﷻ قد وعد بمحوها .

(٢) بين القرآن الكريم أمام الإنسان " آلة الأمل " ووضع يده عليها بحيث لا يضل في الوصول إليها ، وهي في مقدور كل امرئ ،

بل هي نابعة من فطرته ، لا تحتاج إلى أسباب يعز عليه العثور عليها ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب .** ﴾ الرعد ٢٨ .

(٣) بين القرآن ــ كذلك ــ أن الله ﷻ هو الغاية المأمولة لكل عبد منيب يلجأ إليه عند كربه وحاجته ، فيمد الله يد العون لكل من توجه إليه بحيث لا يتركه يحبو إليه بل ينتزعه من الشقاء والشقاق وينزل عليه السكينة ، وأن نصره ﷻ له أقرب إليه من حبل الوريد ، وأنه بقدرته يحول المستحيلات في حياة العبد المنيب إلى ممكن ، كما كان الحال مع الأنبياء الذين أشرت إليهم .

إن أي علاج لليأس ، وأي محاولة لنزع القنوط تصدر من أي بشر ــ مهما كانت عبقريته وتجاربه وخبراته ــ فهي علاج أرضي ، قد يجعل اليأس وإن تخلص منه صاحبه قاب قوسين أو أدنى منه ، قد يرتد إليه لأتفه الأسباب رجوع الوليد إلى أمه الهاوية عليه .

أما علاج القرآن فإنه ينزع اليأس ويربط على قلب المؤمن ، بحيث لا يعود إليه أبدا .

فهل يهرع البشر إلى كتاب الله ﷻ ﴿ **ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين .** ﴾ البقرة ١-٢.

نسأل الله أن يربط على قلوبنا بالإيمان . والحمد لله رب العالمين .

المبحث الثالث .

منهج السنة النبوية في بث روح الأمل .

السنة في اصطلاح المحدثين [٦٠] : ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلقية خُلقية أو سيرة،سواء كان قبل البعثة أو بعدها.

والحديث عن منهج السنة سوف يشتمل على نقطتين :-

أولاً : ما بثه النبي ﷺ في نفوس مَنْ آمن به من نصر وتمكين من رب العالمين ، وزوال كلمة الطغاة والمجرمين .

وهذه النقطة تنقسم إلى قسمين :-

(١) مواقف من السيرة النبوية المباركة .

(٢) أقوال مأثورة عن النبي ﷺ .

ثانياً : ما دعت إليه السنة النبوية المباركة من بث روح الأمل في نفوس الناس ، وإدخال البشر والسرور عليهم عامة .

---

(٦٠) أنظر : د٠مصطفى السباعي ــ السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص٤٧ ط المكتب الإسلامي ، الحديث والمحدثون ــ د٠محمد أبو زهو ص٩ــ دار الفكر العربي ، شذرات من علوم السنة ــ د٠محمد الأحمدي أبو النور ص٣٧ ط وزارة الأوقاف ، الفكر المنهجي عند المحدثين ــ د٠همام عبد الرحيم سعيد ــ كتاب الأمة المحرم ١٤٠٨هـ ، الوجيز في علم أصول الفقه ــ د٠عبد الكريم زيدان ص١٦٢ .

أولاً : ما بثته السنة في النفوس من الوعد بالنصر والتمكين .

[١] مواقف من واقع السيرة .

فأما النقطة الأولى وهي تبشير المؤمنين بالنصر والتمكين من واقع أحداث السيرة فقد كانت من أعظم أساليب التربية التي استخدمها ﷺ لتثبيت أصحابه على طريق الإسلام ، ولقد أثمرت ثماراً يانعة ، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها ، ولنذكر بعض المواقف .

الموقف الأول .

قال ابن إسحاق [٦١] : وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر ، وبأبيه وأمه ــ وكانوا أهل بيت إسلام ــ إذا حميت الظهيرة يعذبونه برمضاء مكة فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول فيما بلغني : " **صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة .** "

إن تلك البشارة العظمى من النبي ﷺ تقوم على :-

أ ــ أن الجنة منتهى آمال الصحابة لكونها ثمرة مرضاة الله ، ولقد ربلهم الرسول ﷺ على حب الجنة والمسارعة إليها ، وهم يجتهدون في البحث عن أقصر طريق للوصول إليها ، فمر عليهم الرسول ﷺ وهم على تلك الحالة فطمأنهم على أن ما هم عليه من بلاء إنما هو السبيل الأقوم لنيل الدرجات العلى من الجنة .

ب ــ أن الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ كانوا يرون أن مَنْ ذهب إلى الله قبل أن يدرك النصر فذلك الذي ادخر كل مستحقاته ليفوز بها في الدرجات العلى ، وذلك أفضل ممن عجلت له بعض حسناته في الدنيا ممن أدرك النصر .

---

(٦١) البداية والنهاية لابن كثير ٢/٧١ ط دار الغد العربي .

فأراد الرسول ﷺ أن يسوق إليهم البشرى ، ويبث فيهم روح الأمل أنهم إن تماسكوا واصطبروا فإن الجنة موعدهم .

وهل هناك من بشرى للمسلم أعظم من الجنة يضمنها له مَنْ لا ينطق عن الهوى .

ولقد صارت تلك الكلمة مثلاً يُضرب في كل زمن ، يُردده الدعاة ؛ ليجعلوه سلوى وعزاءً لهم إن ادلهمت المصائب وسكنت بدارهم الخطوب.

صارت تلك الكلمة حافزاً لكل داعية إذا أعياه طول الطريق وثقل المتاع وكاد نفسه ينقطع ، وأوصاله أن تتفكك ، وهمت نفسه أن تقعد حينئذ تشرق عليه تلك الكلمة المباركة ، فإذا به يرتد بصيراً ، ويلبس ثوب العافية ليركض إلى الله من جديد ، فرحاً بما آتاه الله من فضله ، يرى أن ما عليه من أعباء وما أمامه من عقبات إنما هو ثمن للجنة .

ولولا هذا الأمل لما ضحى الدعاة بأموالهم وأنفسهم بدءاً من ياسر وسمية التي أغلظت لأبي جهل فطعنها في قبلها بحربة فماتت . (٦٢)

ولولا هذا الأمل الذي بثه رسول الله ﷺ في نفوس المسلمين لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولولا هذا الأمل لفسدت الأرض .

إن تلك البشارة تُعد من جوامع كلمه ﷺ ، والتي كان لها دور عظيم في عمارة الأرض .

---

(٦٢) أنظر : السيرة النبوية لابن هشام ١٩٦/١ ، والرحيق المختوم للمباركفوري ص١٠٦ ، والقبس الوضاء للدكتور محمد الطيب النجار ص٥١ .

الموقف الثاني .

عن **خباب** ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد برده وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة فقلت : يا رسول الله ألا تدعو الله لنا ؟!

فقعد وهو محمر الوجه فقال : **لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه .** " (٦٣)

إن هذا الصحابي الجليل " **خباب** ﷺ " الذي كانت مولاته تكوي ظهره بالحديد المنصهر قد جاء الرسول ﷺ بعد أن ضاق ذرعا بهذا العذاب المتكرر ، وكأني به وهو يخاطب الرسول ﷺ " في ألم : ألا تدعو لنا ؟! كأنه يستبطئ سير الزمن ويستحث خطاه ، ويريد حسم الموقف بين الإيمان والشرك بدعوة محمدية تهتز لها قوائم العرش ، فينزل الله بأسه بالقوم المجرمين كما أنزله بعاد وثمود والذين من بعدهم .. وغضب النبي ﷺ لهذه العجلة من صاحبه ، وألقى عليه درسا في الصبر على بأساء اليوم والأمل في نصر الغد . " (٦٤)

---

(٦٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري / كتاب مناقب الأنصار / باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه بمكة ٢٠٢/٧ برقم ٣٨٥٢ عن خباب ﷺ ، ورواه أبو داود وأحمد والنسائي عن خباب ﷺ ــ صحيح الجامع الصغير .رقم ٤٤٥٠ .

(٦٤) الإيمان والحياة ــ د٠يوسف القرضاوي ص١٦٤-١٦٥ .

أراد الرسول ﷺ أن يوضح لخباب ﷺ ــ ولكل مسلم في شخص خباب:-

(١) أن الإسلام رسالة الله إلى العالمين ، خالد إلى يوم الدين ولا معقب بعده من دين ، ودين شأنه هكذا لابد له من دعائم [٦٥] عظام قوية غير هشة ، تلك الدعائم لابد لها من الصبر على البأساء والضراء وحين الزلزلة حتى يتسنى لهم الانطلاق انطلاق العماليق لينشروا الإسلام في الآفاق ، أما إذا كانت النفوس صغيرة فإن الهمة ستجافي أصحابها ، ولن يتجاوز هذا الدين الذين عرفوا به .

(٢) وأن خباب ﷺ قد نسي ــ من شدة العذاب ــ أن دعوة الإسلام عالمية ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ الفرقان ١.

فأراد الرسول ﷺ أن يذكره أن دعوة الإسلام العالمية ما كان لها أن تغلق عليها مكة أبوابها ، وأن تكون مكة على أصحاب هذه الدعوة سجناً أبداً ، وإنما هي فترة محدودة ، وضيق إلى أجل يأتي بعد الفرج ، سنة الله مع الخلق ، وساعتها ستفرج أسارير الناس لهذا الدين ، وتعود الأرض من جديد كلها أمناً ، وتغدو كلها رخاءً ، لكن متى هذا ؟ بعد أن يدفع المسلمون ثمن الأمن والرخاء ، وهو الصبر الجميل .

---

(٦٥) المراد بالدعائم : الرجال الذين يبلغون الدين ويقومون عليه خير قيام .

الموقف الثالث .

موقف **سراقة بن مالك** ﷺ الذي ملأ كتب السيرة [٦٦] من رسول الله ﷺ في طريقه إلى المدينة في الهجرة .

يقول **د٠يوسف القرضاوي** [٦٧] : " في الطريق يلحق الفارس المغامر **سراقة بن مالك** ﷺ ، وفي رأسه أحلام سعيدة بمائة ناقة من حمر النعم ، جائزة قريش لمَنْ يأتي برأس محمد ﷺ حياً أو ميتاً ، ولكن قوائم فرسه تسوخ الأرض ويدركه الوهن ، وينظر إليه الرسول ﷺ ويكشف الله له عن الغيب المستور لدينه ، فيقول له ﷺ : يا سراقة : كيف بك إذا ألبسك الله سواري كسرى؟ فيعجب الرجل ويبهت ويقول : كسرى بن هرمز ؟!! فيقول ﷺ : نعم .

وفي عهد الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ ينزع الله الملك من كسرى ليؤتيه عمر ويُؤتى بخزائنه لتوضع بين يدي الفاروق ﷺ ، ويتذكر عهد رسول الله ﷺ وميثاقه لسراقة ﷺ فيستدعيه على الفور ، " ويلبسه قميص كسرى وسراويله وقباءه ــ الثوب ــ وخفيه ، وقلده سيفه ومنطقته ــ حزام يُشد على الوسط ــ ووضع على رأسه تاجه وألبسه سواريه .. نعم سواريه .

عند ذلك هتف المسلمون : الله أكبر ... الله أكبر ... الله أكبر .

ثم التفت عمر ﷺ إلى سراقة ﷺ وقال : بخ بخ ، أعيرابي من بني مدلج على رأسه تاج كسرى .. وفي يديه سواريه . " [٦٨]

---

(٦٦) أنظر سيرة ابن هشام ٣٠٩/٢ ط دار التراث العربي .

(٦٧) الإيمان والحياة ص١٦٥ .

(٦٨) د٠عبد الرحمن رأفت الباشا ــ صور من حياة الصحابة ٢٣/٧-٢٤ ط دار النفائس ومؤسسة الرسالة .

وفي هذا الموقف :-

(١) أن رسول الله ﷺ كان متفائلاً دائما بنصر الله ، وكان يتجلى تفاؤله في ساعات الشدائد في حياته .

وفي هذه الساعة وهو مُطارَد يطوي الزمن طياً فيرى من حقائقه ما قصه على ذلك الفارس المطارِد ، إن كلمته ستدق عروش الأكاسرة ، وستكون أنت واحداً ممن أصابهم سهم النعمة ، وتوشح بوشاح أولئك العظماء ، وسوف تدخل التاريخ من أوسع أبوابه . (٦٩)

وفي هذا درس عظيم لنا في أن نرقب الإصباح في ظلمة الليل ، فبعد الليل النهارُ ، والله يقلب الليل والنهار ويقدر الليل والنهار ، فلابد وأن يحول ليلنا نهاراً كما كان نهاراً بالأمس ، لكن كل هذا بقدر مَنْ يقدر الليل والنهار .

(٣) لماذا سأل سراقة ﷺ : كسرى بن هرمز ؟

يحتمل عدة أمور :

أ ــ أراد أن يستوثق أهو " ابن هرمز " أم أن محمداً ﷺ يقصد كسرى غيره ؟

ب ــ كيف تقول كسرى بن هرمز وأنت على حالك هذا ، فهذا دليل على عظيم ثقتك بما أنت عليه .

ج ــ أن العرب كانوا يرون في الفرس مثلاً سامقاً في الرقي والحضارة والهيمنة العسكرية ، فهل أنا ــ ذلك الأعرابي ــ سأرث كسرى في ملابسه ؟

---

(٦٩) لو سمع سراقة ﷺ هذا الكلام وهو في عنفوان عزمه وحرصه على إدراكه ﷺ لظنه الفارس خدعة ، لكنه قد سمعه بعد أن أراه الله من الآيات ما ألقى في روعه أن أمر محمد ﷺ سيظهر ، وأنه منتصر لا محالة ، حينئذ وقع القول منه موقع الصدق ، وظل هذا الأمل يراوده حتى أتاه اليقين بتقلده ما وعد به الصادق الأمين ﷺ .